جامعة قطر

مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

غير مسموح بإعارته من المكتبة

العدد الحادي عشر
١٤٠٩ هجرية - ١٩٨٨ ميلادية

عمر بن أبي ربيعة

«رؤيــة جـديدة»

د. عاطف جودة نصر
أستاذ مساعد قسم اللغة العربية

نقرأ ديوان عمر بن أبي ربيعة فلا نكاد نظفر فيه بأثارة من الأغراض التقليدية التي تعـاورها الشعراء في العصرين الجاهلي والأموي ، والحق أن المصادر قديمها وحديثها تجمع على أنه كرّس شعره لغرض واحد هو التشبيب والغزل إلا بعض الأبيات التي ذهب فيها مذاهب الشعراء .

وقد كان عمر مفتوناً بالنساء ، ومن يقرأ ديوانه وأخباره المنبثة في كتاب الأغاني ، فلن يجد أكثر هذا الغزل إلا في مواسم الحجّ ، إذ تغص شعاب مكة والمدينة بزرافات ووحدان من النساء المحجبات .

ويلاحظ القـارىء أنه بإزاء آراء وروايات متناقضة أوردها صاحب الأغاني حول أخلاق عمر وسلوكه وشعره وشهادة الشعراء فيه . من ذلك ما ذكره أبو الفرج من حديث يعقوب بن اسحق إذ قال : وكانت العرب تقر لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلا في الشعر فإنها كانت لا تقرّ لها به حتى كان عمر فأقرّت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها شيئا . وقال نصيب الشاعر : لعمر أوصفنا لربات الحجال . وقال ابن جريج : ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضرّ عليهن من شعر عمر .

وقال هشام بن عروة : لاترووا فتياتكم شعر عمر لايتورطن في الزنا تورطا . وذكر أبـو الفـرج قول حماد لما سئل عن شعر عمر : ذلك الفستق المقشر . وقول أبي المقوم الأنصاري : ما عصى الله بشيء كما عصى بشعر عمر .[1]

وتظهرنا الآراء السابقة على الخلط الذي كثيرا ما وقع فيه النقاد منذ القرن الأول حتى عصر متأخر ، وهو خلط يتمثل في تقويم الفنّ بمعايير السلوك الأخلاقي للشاعر ، مما يكشف عن قدر من اللبس بين الجـمال الفني والأحكام الأخلاقية . وربما آل هذا اللبس إلى ما للدين من سلطة لمسنا أثرها في هذه الآراء النقدية ، وفي كثير من مباحث المجاز الذي طمسته وعفّت عليه مشكلات الجدل وعلم الكلام .

ولا تعبر هذه الأحكام عن القيمة الفنية بقدر ما تعبر عن تخوف وحذر شديديْن من أن يحفظ هذا الشعـر أو يروى لأنه يعين على الغواية والفسوق . ومصدر هذا اللبس تطبيق ما ينبغي أن يكون على ما هو كائن ، والحكم على الإبداع الفني والتجربة الشعرية بواسطة المعايير الأخلاقية ، برغم ما بينهما من تفاوت واختلاف ، فبينما يؤسس الحكم الأخـلاقي الايجابي على الوعي بالمنافع القريبة أو على إدراك ما يناقض الخير إن كان الحكم سالباً ، نجد أن الحكم الجمالي يتميز بالإيجابية وبأنه حقيقي مؤسس على التجربة المباشرة ، لا على فكرة منفعة نهائية في الموضوع .

وليكن عمر ماجنا غويّا ، ولينشد المتعة واللذة ما شاء له النشدان ، فإن ذلك كله لايزري بفنـه ولا يقلّل من قيمته ، مادام فناً ينطوي على الجدة ، ويحقق ضروباً من الابتكار والإبداع في الشكل وفي المضمون . ومتى أهبنا بالروايات والأخبار التي ساقها الأصفهاني وقعنا على تناقض حادّ بينها ، فبينما أكدت طائفة من هذه الروايات والأخبار على دعارة عمر وتفسّخه الأخلاقي ، ذهبت طائفة أخرى منها إلى أن ما وصفه في قصائده من مغامرات لم يكن سوى نمط فني من أنماط التعبير الشعري .

ومن قبيل الروايات التي تصمه وتدينه ما أورد أبو الفرج من أن رجلاً من حمير يدعى سمرة الدوماني كان يطوف بالبيت فإذا هو بشيخ في الطواف قيل له إنه ابن أبي ربيعة . فقبض الحميري على يده وقال : يا ابن أبي ربيعة ، فقال : ما تشاء ؟ قال : أكلُّ ما

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ط دار الكتب المصرية ، الطبعة الأولى ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م ج ١ ص ٧٤ .

قلته في شعرك فعلته ؟ فقال عمر : إليك عني ولما ألح الحميري في سؤاله قال عمر : نعم وأستغفر الله .

وفي حديث إسحق عن السعدي أن الوليد بن عبد الملك قدم مكة فأراد أن يأتي الطائف ، فسأل عن رجل له علم بأموالها ، فقيل له عمر ، فقال : لا حاجة لي به ، ولم يلبث بعد طول تردّد أن رضيه وركب معه يحدثه ، وإن عمر ليحرك رداءه ليصلحه على كتفه إذ بصر الوليد على منكبه بأثر وسأل عنه فقال عمر : كنت عند جارية ، إذ جاءتني جارية برسالة من عند جارية أخرى ، فجعلت تُسارّني فغارت التي كنت أحدثها فعضت منكبي ، فما وجدت ألم عضها من لذة ما كانت تلك تنفث في أذني ، فضحك الوليد ، فلما رجع عمر قيل له ما الذي كنت تحدث به أمير المؤمنين فأضحكه ؟ فقال : مازلنا في حديث الزنا حتى رجعنا .

ومن قبيل الروايات التي احتجت لعفة عمر ورزانته ، قول أبي الفرج من طريق إسحق رواية عن عبد العزيز بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة : أشرف عمر على أبي قبيس وبنو أخيه معه وهم محرمون ، فقال لبعضهم خذ بيدي فأخذ بيده وقال : ورب هذه البنيّة ما قلت لامرأة قط شيئا لم تقله لي ، وما كشفت ثوباً عن حرام قط .

قال : ولما مرض عمر مرضه الذي مات فيه ، جزع أخوه الحارث فقال له عمر : أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي ، والله ما أعلم أني ركبت فاحشة قط ، فقال : ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك وقد سلّيت عني .

وفي رواية المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال : حججت مع أبي وأنا غلام وعليّ جُمّة فلما قدمت مكة جئت عمر فسلمت عليه وجلست معه ، فجعل يمد الخصلة من شعري ثم يرسلها ويقول واشباباه حتى فعل ذلك مراراً ثم قال لي : يا ابن أخي قد سمعتني أقول في شعري قالت لي وقلت لها ، وكل مملوك لي حرّ إن كنت كشفتُ عن فرج حرام قط ، فقمت وأنا متشكك في يمينه ، وذكر أبو الفرج من حديث الزبير بن بكار قوله : لم يذهب على أحد من الرواة أن عمر كان عفيفاً يصف ويقف ويحوم ولا يرد .[1]

(١) الأغاني ج ١ ص ٧٥/٧٦/٧٧/٧٨ .

إن التحقق من هذه الروايات يحيل على النقد التاريخي الذي يفسر شخصية عمر وشعره في إطار بيئتيْن غير منفصلتيْن ، بيئة اجتماعية عامة نتعرف عليها في منطقة الحجاز في العصر الأموي ، وبيئة خاصة تتمثل في أسرة الشاعر ونشأته والوضع الاجتماعي للطبقة التي ينتمي إليها . ويسترشد هذا المنهج في النقد بعلم الاجتماع الأدبي ، إذ يعيد تركيب البناء الاجتماعي للبيئة في سياق ما ينتجه تماثل العوامل والمؤثرات في مسار العصور التاريخية من تشابه في أنماط الشخصيات والقيم والسلوك . ومن البيّن أنه منهج يلوذ بشكل من أشكال الحتمية ، ويفسر الفرديّ في تميزه وخصوصيته برده إلى نسق كلّي عام ، يبدو ضرورة تحدّد على نحو قبلي كل ما يستند إليها من نشاط .

وتجمع المصادر في هذا السياق على أن عمر نشأ منذ نعومة أظفاره في بيت من البيوتات الأرستقراطية ، إذ كان أبوه عبد الله بن أبي ربيعة تاجراً موسراً له عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن ، وكانت قريش تسميه العدْل ، وذلك أنها كانت تكسو الكعبة في الجاهلية بأجمعها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، وفي عبد الله بن أبي ربيعة يقول ابن الزِّبَعْري :

بحير بن ذي الرمحين قرّب مجلسي ... وراح عليّ خيرُه غير عاتم

وجمع أبوه الى التجارة واليسار وكثرة من يخدمونه من الأحباش مركزاً سياسياً مرموقاً ، وذلك أن النبي عليه السلام استعمله على ولاية من ولايات اليمن هي الجَنَد ومخاليفها ، وظل فيها حتى قتل عمر بن الخطاب .

في هذا البيت الناعم نشأ عمر ارستقراطياً نبيلاً ، ميّالاً للكسل والدعة ، منصرفاً عن احتراف العمل ، جانحاً لحب المغامرة ، شغوفاً بالفنّ ، محباً للتنقل والسفر . وعاش حياته الخاصة في بيئة الحجاز ، تلك التي كانت في العصر الأموي لاسيما مكة والمدينة ، زاخرة بالحياة ، غنية بأنواع الترف ، وكانت الأموال تصب فيها صباً من البلاد المفتوحة ، وكثر فيها الموالى من عبيد وجوار من الرومان والفرس وغيرهم ، فكان السيد يملك من هذه العناصر الأجنبية العدد الكثير ، وكان الحجاز أكبر مركز لظاهرتيْن متناقضتيْن أو كالمتناقضتيْن ، فهو أكبر مركز للحركة الدينية من درس للقرآن والحديث والفقه ، يهرع اليه الناس من جميع الأقطار ، يأخذون عن رجاله علمهم بالكتاب والسنة واستنباطهم الأحكام الشرعية ، وكان الحجاز موئلاً لحياة العبث واللهو ، ففيه أعظم

المغنين والمغنيات من أمثال ابن سُرَيْج والغريض وسائب خاثر وعزة الميلاء وجميلة وطويس ومعبد ، وانتشر بالحجاز في ذلك العصر دور القيان وأماكن اللهو والغناء . وكان للموسيقى والغناء تأثير واسع على شعراء الحجاز فاستخدموا الإيقاعات المجزوءة والأوزان الخفيفة النشطة ، ولاذوا بمعجم فني يتميز برقة التعبير وسهولة اللغة وعذوبة الإيقاع .(1)

إن التفسير الاجتماعي إذ يربط بين النشأة الخاصة والبيئة الاجتماعية وما فيها من متغيرات وعوامل اقتصادية وسياسية ، إنما ينطلق من نسق يربط بين سلسلة من العلل وأخرى من المعلولات ، وهو يقيس العلاقة بين المبدع والبيئة على الحتميات البيولوجية المطردة ، منتهياً إلى ضرب من الجبرية الاجتماعية ، تشبه في نقائصها علم النفس الترابطي ، وكلاهما يتجه عند التفسير الى الاحتفاظ بما هو هندسيّ ولا شخصي ، واستبدال التجاور والإحكام الشكلي والتشييد المصطنع بالنفسي المليء بالتقطعات والوثبات التي تندّ عن كل توقع ، وكلاهما يخلط بين النسق الشخصي من حيث هو اختيار وإرادة ووجدان ، وبين اللا شخصي من حيث هو عموم وكلية حتميّة .

لم يكن عمر وحده من عاش متقلباً في أكناف الثراء والبذخ والدعة والنعيم ، إذ كانت تلك البيئة الحجازية تظلّ من الشباب من عاشوا في أسر تتمتع بالغنى والجاه والمراكز المرموقة ، ومع ذلك لم يكونوا على حذو عمر في مزاجه وشخصيته وصبواته ومغامراته ، مما يعني أننا لسنا بإزاء قوالب جاهزة من التنظيمات والأبنية الاجتماعية التي تُصبُّ فيها الشخصيات وضروب السلوك والقيم لتخرج في نهاية الأمر على شكل واحد كأنها نسخ متماثلة ، وما ذاك الا لأن الشخصيّ يبدو دائماً في وضع اختيار يحدد الدوافع ولا تحذده ، ويصطفي من بينها ما يمنحه القيمة المطلقة . إن شعر عمر يشفّ عن ملامح وجودية ونفسيّة ، فهو من الناحية الانطولوجية يجسد ما نعته كيركجور بالنمط الجمالي ، أما من الناحية النفسية فهو تعبير خصب عما كان يميز عمر من نرجسية وفتشية .

ولم تخف نرجسيته على واحد من معاصريه ، جمع إلى الفقه السماع وحب الشعر والغناء ، ذلك ابن عتيق الذي قال لـمّا سمع عمر ينشد :

---

(1) أنظر أحمد أمين ، النقد الأدبي ، الطبعة الرابعة ـ بيروت ـ دار الكتاب العربي ١٩٦٧ م .

بَيْنَما يَنْعَتْنَني أبْصرْنَني دُونَ قِيدِ المِيلِ يَعْدُو بي الأَغَرّ
قالت الكُبْرى أتعرفْنَ الفَتَى قالت الوُسْطَى نَعمْ هَذا عُمَرْ
قالت الصُّغرى وقد تيَّمْتُها قد عَرَفْناهُ وهل يَخْفَى القَمَرْ

أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك . ويسند المرزباني في الموشح هذا القول لكثير عزة في سياق ذكره قول عمر :

قالتْ لِترْبٍ لها تُحدِّثُها لَنُفْسِدَنَّ الطوافَ في عُمَر
قومي تَصدَّيْ له ليبصِرَنا ثم اغْمِزيهِ يا أُخْتُ في خَفَرِ
قالتْ لها قد غمزْتُهُ فأبى ثم اسْبَطَرَّتْ تشْتَدُّ في أَثَري

وتتمثل النرجسية في أن حب الموضوعات يحل محله حب الذات ، كما تتمثل في أن التقدير الزائد الذي يتجه عادة إلى شخص محبوب ، يتجه الآن إلى أنا الشخص ، إنه انغماس في صورة مشبوبة من حب الذات تفضي بالنرجسي إلى أن يتخيل جماعاً جنسيا مع نفسه ، والنرجسية بوصفها اعتقاد الشخص في قدرته المطلقة ، ليست غير وجه واحد من العالم السحري الأرواحي . وليست نرجسية عمر كنرجسية غيره من آحاد الناس الذين يستغرقون في أحلام اليقظة ، فالفرق بين الشعر وحلم اليقظة كما يراه زاخس يتمثل في أن هذه الصورة من الزهو ، وهذه المتعة الناشئة من نظر الإنسان الى نفسه في مرآة مجملة لابد من التضحية بها عند الانتقال من حلم اليقظة الذي هو بمعزل عن المجتمع إلى العمل الفني .[(1)]

لقد كان عمر شاعراً نرجسيا مغرقاً في الانحناء على ذاته ، فهو المعشوق لا العاشق ، والمحبوب الذي يعني النساء طلب وصاله ، وهكذا تحوّرت العلاقة بحيث غدا الشاعر مطمح الأنظار ومحور الاهتمام من النساء .

---

(١) انظر د. عز الدين إسماعيل ، التفسير النفسي للأدب ط دار العودة ودار الثقافة - بيروت - ص ٣٢ / ٣٣ وراجع أيضا :

The standard edition of the complete psychological

Works of Sigmund freud, translated under the general editorship of James Strachey, sondan, the Hogarth press,

1966,V,7,145,VII,62,100,181,VI6,417,418,V18,112,113

وتعبر بعض الصيغ في هذين النموذجين عن هذا الملمح النفسي في شخصية الشاعر ، وذلك قوله :

قَدْ حلفَتْ ليلة الصَّوْرين جاهدةً وما على المرْءِ إلا الحِلْف مُجْتَهِدا
لُأختِها ولأخرى من مَنَاصِفها لقد وَجَدْتُ به فوْقَ الذي وَجَدا
لو جُمِعَ الناسُ ثم اخْتِيرَ صَفْوُهم شخْصاً من الناس لم أَعْدِلْ به أَحَدا

وقوله :

قالتْ ثُريّا لَأترابٍ لها قُطُفٍ قُمْنَ نُحَيّ أبا الخَطّاب عن كَثَبِ
فِطرْنَ طَيْراً لما قالَتْ وشايَعَها مثلُ التماثيلِ قدْ مُوِّهْنَ بالذَّهَبِ

إن التحليل النفسي للنرجسية متمثلة في حالة الشاعر العينية ، يهدي الى التعرف على بعض الخصائص التي يمكن تطبيقها على حالات فردية كحالة عمر بن أبي ربيعة . ويكشف لنا علم النفس الاستبطاني الذي يستنير بالأنطولوجيا الظواهرية هذه النرجسية من خلال مقولتيْن تتمثلان في النظرة والجسم . إن الشاعر بوصفه تجسيدا للحالة ، كان يجعل من نفسه موضوعاً يتملكه الغير ، وهذا هو محور العلاقة المتوتّرة بين الشاعر وذاته ، وبينه وبين الغير متمثلاً في الأنثى .

ويتكشف لنا هذا التوتر في أن الشاعر كان يرغب دائماً في أن يظل في محايثة مع ذاته ، وأن ينطوي على إنيته كما تنطوي الأصداف على اللآلىء الثمينة . غير أن هذه الرغبة سرعان ما تنفيها ضروب تعشقه لذاته وعندئذ تخرجه من المحايثة ، وتحول ذاته الى موضوع بالنسبة للغير ، بحيث تبدو شخصيته قطب اهتمام وجاذبية للأنثى ، وعلى هذا النحو يفصح الوجود لذاته عن مستوى آخر يتجلى في الوجود للغير ، ويتم ذلك كله بواسطة النظرة ، فهي تعني رغبة الشاعر في أن يكون مرئياً ومنظوراً إليه ومنكشفا للجنس الآخر . كان عمر يلح في شعره على صيغ ومفردات تعبر عن رغبته في النظّارية والاستحواذ على إعجاب النساء ومن قبيل هذه الصيغ والمفردات قوله :

بيْنَما ينْعَتْنَني أبصرْنَني دونَ قِيدِ المِيلِ يعدُو بي الأغَرّ

وقوله على لسان إحدى عشيقاته :

قُومـي تَصَـدَّيْ له ليبصَرَنـا ثم اغْـمـزِيه يا أُخْـتُ في خَفَـر
قالَـتْ لها قد غمـزْتُـه فأبـى ثم اسْـبَـطَرَّتْ تشْـتَـدُّ في أَثَـرِي

إن عمر في هذا كله وفي غيره من شعره مُبْصَرٌ أي مرغوب في أن ينظر إليه . والشاعر بوصفه منظوراً إليه كان لديه شعور حادّ بجسمه ، لا من حيث إن الجسم مجرد امتداد في المكـان ، وإنـما من حيث يبـدو شعـوره بجسمـه منصبغـاً برغبـة عارمة في التمايز والاستعراض ، مغرقة في التأنق والزينة .

وكثيرا ما كان هذا الشعور يدفعه دفعاً إلى كل ما هو غريب ولافت وشاذ في بعض الأحيان . هذا التمايـز النرجسي يعبر عن رغبة الشاعر في النجومية والشهرة بحيث لايخفى أمره على الجنس الآخر بوصفه قطب جاذبية ومركز اهتمام . وهذا ما نجد في قول عمر على لسان الأخريات :

قد عرفناه وهـل يخفى القمر ؟

إن لدى الشاعر رغبة جموحاً في أن يكون معرّى ومنكشفاً للغير بواسطة النظرة التي يسددها اليه ، وهو يستحلب من هذه النظرة المعجبة التي تمزق عنه الحجاب لذة لا تقاوم .

ومما يتمم ملامح الشاعر ويقرب إلينا عالمه الفني فتشيته الطاغية ، والفتشية وفق نظريات التحليل النفسي تبنى على البدائل ، فالمحب يجد في ثوب أو في عطر خاص بمن يحب بديلاً عنها ومن مظاهر الفتشية أن يتزايد الاهتمام الجنسي بملابس النساء الداخلية كإشارة الى العرى الأنثوي ، متى كان على الشخص أن يتجنب رؤ ية العرى ، ومن الممكن أن يكون الشيء الفتش ضئيل القيمة في ذاته ، ولكنه يكتسب أهمية هائلة من خلال التقدير الزائد ، وغالباً ما تكون الرائحة فاصلة ، وقد تحدث فرويد عن كبت جزئي من شأنه أن يجعل من الممكن استبقاء الجزء مكان الكل في الشعور ، بينما يظل الكل مكبوتاً [1]

(1) Ibid, V,7,153,155,V9,45,47,V10,247

ومما يكشف عن فتشية عمر قوله لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان وقد طلب إليها قميصاً يلي جلدها ففعلت :

مَمْكُورةٌ رَدْعُ العَبيرِ بها جَمُّ العِظامِ لطيفَةُ الخَصْرْ
وكأنّ فاها عنْدَ رَقْدَتِها تَجْرِي عليه سُلافَةُ الخَمْرِ

وقوله وقد وجهت إليه قميصاً من ثيابها يلي جلدها :

فلا وأبيك ما صَوْتَ الغواني ولا شُرْبَ التي هي كالفصوص
أردتُ برحلتي وأريدُ حظّا ولا أكْلَ الدَّجاجِ ولا الخَبيص
قَميصٌ ما يُفارقُني حَياتي أنيسٌ في المقَام وفي الشُّخُوص

وفي سياق هذه الفتشية ذكر المرزباني في الموشح أن عبد الله بن عمر وأبا العتبي ماحكا أبا عبيدة في عمر بن أبي ربيعة ، فعاب أبو عبيدة شعره وقال : قال عمر بيتاً هو في أوله قاصّ وفي آخر مخنث ، وذلك قوله :

أدْخَلَ اللهُ ربُّ موسى وعيسى جنَّة الخُلْدِ من مَلاني خَلُوقا
مسحَتْهُ من كفِّها بردائي حينَ طُفْنَا بالبيْتِ مَسْحاً رَفيقا

هكذا عبر شعر عمر عن فتشية الثياب المضمخة والعطور النفاذة والروائح المبلبلة الآسرة ، لقد كان يجد في ذلك كله بديلاً حيا يحقق في شعوره ضرباً من حضور المرأة . وتبدو شدة حساسيته للعطور في وضع استجلاب وتعرف . وتؤذن حالة عمر بأن ثمة شيئاً ماثلاً يهدي الى آخر غائب وغير حاضر ، فالشفيف والفاغم يمثلان في وعيه أشياء مادية حاضرة تفضي إلى غير حاضر أمام العيان ، مما يعني أن الشاعر كان قادراً من خلال تعلقه الفتشّي بهذه الموضوعات على أن يجعل المرأة محضرة لوعيه كلما شاء .

ولم يكن عمر يشم هذه الطيوب فحسب ، وإنها كانت أيضاً تترعه وتملؤه كما لو كان قنّينة بارعة الطراز ، وليس هذا العطر الملذ مجرد بديل عن الأنثى أو رابطة إدراكية في عملية التداعي ولكنه أيضاً ما يملأ ، إنه من أجل هذا الملء ، ورغبة في الاستدخال والاحتواء .

وتعبر تجربة عمر الشعرية عن العالم المدرك لوعيه على نحو سحري ، والسحريّ

ليس كيفية عابرة نضيفها على العالم وفقاً لأهوائنا ، ولكنه بناء وجودي للعالم لا يقتصر على المجال الإنساني بل يشمل الأشياء بقدر ما تظهر لنا في هيئة إنسانية ، أو بقدر ما تحمل الطابع النفسي [1] وتزكي نرجسية عمر وفتشية الطابع السحري فيما أبدع من عوالم شعرية ، فالنرجسية وفق نظريات التحليل النفسي وجه من العالم السحري الأرواحي ، والفتشية موقف من بعض الأشياء يحل فيه الجزء محل الكل ، أو يكون فيه الجزء هو الكل ذاته ، فالقميص الشفيف والطيب الممسوح بثوب الشاعر هو المرأة ذاتها .

وكان عمر كما هو بين من سيرته لا يتغزل الا بنساء الطبقة الأرستقراطية ، وكان أكثر غزله عندما يصادفهن في موسم الحج وهنّ يؤدين المناسك ، ومن أولئك النساء اللواتي ذكرهن في شعره ، هند بنت الحارث المريّة ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله ، وكلثم بنت سعد المخزومية ، ولبابة بنت عبد الله بن العباس امرأة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، والثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية ، ورملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية وفاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية ، وزينب بنت موسى الجمحية ، وغير هؤلاء من نساء الطبقة النبيلة .

ومن روايات الأغاني أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجّت فلما قضت نسكها أتت عمر وقد أخفت نفسها في نسوة فحدثها ملياً ، فلما انصرفت أتبعها رسولاً عرف موضعها وسأل عنها حتى أثبتها ، فعادت إلى عمر من بعد ، فأخبرها بمعرفته إياها ، فقالت : نشدتك الله أن تشهرني بشعرك ، وبعثت إليه بألف دينار فابتاع بها حللاً وطيباً أهداه إليها ، فقبلته بعد تردد ورحلت فقال عمر :

أيُّها الرائحُ المُجِدُّ ابْتِكارا ... قَدْ قَضى مِن تِهامةَ الأَوْطارا
مَنْ يكُنْ قلبُه صَحيحاً سليمًا ... فَفُؤادي بالخَيْفِ أمْسَى مُعارا
ليتَ ذا الدهرَ كان حتماً علينا ... كُلَّ يومَيْنِ حَجّةً واعْتِمارا

وقال في عائشة بنت طلحة وقد رآها ترمي الجمار سافرة :

(١) جان بول سارتر ، نظرية في الانفعالات ، ترجمة د . سامي محمود علي وعبد السلام القفاش ط . دار المعارف ١٩٦٠ ص ٦٣ ، ٦٧ .

أقـبـلتُ أنــظرُ ما زَعَـمْـنَ وقُـلْنَ لي … والــقـــلبُ بين مُصَـدِّقٍ ومـكــذِّبِ
فلقـيتُــهـــا تَمْشي تَهادَى مَوْهِـنــاً … تَرْمـي الجِـمارَ عشـيّةً في مَوْكِـبِ
غراءَ يُغْشى الـنـاظـرين بياضُهـا … حَوْراءَ في غُلْواءِ عَيْشٍ مُعْجِـبِ
إن الــتي من أرضِـهــا وسـمائِـهـا … جُلبَـتْ لِحَيْنِـكَ ليتـهـا لم تُجْلَبِ

على هذا النحو كان غزل عمر وشعره الغرامي الذي ملأ الحجاز شعابا وبطاحاً ، وأعجب به الملحنون والمشتغلون بالغناء في هذه البيئة البذخة المترفة . ولم تكن آراء النقاد الـذين قوموا شعره بمعايير الأخلاق والدين ، لتمنع هذا الشعر من أن ينتشر ويذيع بالغناء والرواية ، بل ربما أعانت هذه الآراء على ذيوع شعره حتى سمع به شعراء العراق الكبار من أمثال الفرزدق وجرير .

ولا نعدم متى امتحنا هذه الآراء أن نظفر فيها بوجهات من النظر معتبرة ، ولكنْ علينا أن نعيد بناءها وتحليلها . وفي هذا السياق تقابلنا أقوال وأوصاف تدور على المعصية والخنوثة ، وقد ذكر أبو الفرج قول أبي المقوم الأنصاري : ما عصى الله بشيء كما عصى بشعر عمر ، ووصف أبي عبيدة شيئاً من شعر عمر بأنه مخنث . ولعلهم أرادوا بذلك صراحته وذكره طرفاً من مغامراته ، وتعريضه بمن كان يلقى من نساء الطبقة الراقية ، غير متورع ولا متحرج من وصف ما يفتن ويثير . وينبغي أن نضع في الاعتبار أن هذا الحكم لا ينسحب على بعض شعراء العصر الجاهلي الذين كانوا في شعرهم أكثر صراحة وجـرأة وانكشـافاً ، وذلك أن هذا الحكم النقدي بإلحاحه على فكرة المعصية والذنب لاينطبق إلا على شاعر إسلامي كعمر بن أبي ربيعة .

إن شعر عمـر في ضوء هذه الملاحظة يبدو لنا كما لو كان ضراعة للشّر وابتهالاً للخطيئة وانحرافاً عن الطاعة بمفهومها الديني . إنه لا يمتثل للمحظور غير أن معصيته أو قل شعره الذي يعين عليها ، يطيع هواتف القلب ومقتضيات الفن الشعري ، وعلى الرغم من أن شعره كان يحظى خفية بإعجاب وتقدير ، فقد درج بعض المتشددين من النقـاد والفقهاء على إخفاء هذا الإعجاب ، وأبداه بعضهم استحساناً مثلما فعل ابن عباس ، فقد سمع من عمر في المسجد قصيدته التي مطلعها :

أَمِـنْ آلِ نُعْــم أنـتَ غادٍ فمُبْـكِـرُ … غداةَ غَدٍ أمْ رائـحٌ فمُـهَـجِّـرُ

فلم يردها عليه ولم ينكر شيئا منها .

أما الخنوثة التي ذكرها أبو عبيدة فإنما أراد أن يصف شعر عمر بها ، ذاهباً في ذلك إلى معاني السهولة والرقة والتلطف ورشاقة الإيقاعات في مقابل ما يطالعنا في شعر العراق من توعر وجزالة في المفردات والتراكيب وفخامة في الموسيقى وجلال في الصياغة .

ولا نظن أن عمر كان مخنثاً على نحو خنوثة المصابين بالمثلية الجنسية ، كل ما في الأمر أن خنوثته تتكشف في صبابته للتأنق وولعه بالزينة وما يرتبط بها من الملابس والعطور والأصباغ ، وعلى أي حال فإن فتشيته ونرجسيته يعينان على تصوره شاعراً يصبو الى النظارية والاستعراضية والأناقة المفرطة والزينة الصارخة .

لقد كان عمر شغوفا بتجليينْ للجمال ، جمال الأنثى بوصفه مبعث وضاءة وحرارة ، وجمال من نوع آخر فيه بريق وصنعة وبرود يتمثل في الحلّي التي تفنن في وصفها والكشف عنها والتعبير عما فيها من إشعاع وتوهج . يقول عمر :

لِمن الدّيارُ رسومُها قَفْرُ لعِبَتْ بها الأَرْواحُ والقَطْرُ
لأسِيلة الخدّيْن واضحةٍ يَغْشَى بسُنّةِ وجهها البَدْرُ
دَرِمٌ مرافقُها ومئْزَرُها لا عَاجزٌ تَفِلٌ ولا صِفْرُ
والزّعفرانُ على ترائِبها شَرِقٌ به اللَّبَاتُ والنَّحْرُ
وزَبَرْجَدٌ ومن الجُمان به سَلِسُ النّظام كأنّه جَمْرُ
وبَدائدُ المَرجانِ في قرنٍ والدُرُّ والياقُوتُ والشَّذْرُ

وكثيرا ما كان الشاعر يمزج هذين التجليين للجمال ، بحيث يضفي المطبوع على المصنوع والمصنوع على المطبوع . وربما رد ولع الشاعر بوصف أدوات الزينة التي تتجمل بها المرأة الى معاني الترف والطبقية والنشأة الأرستقراطية النبيلة . مثل هذا التفسير يردّ خصوصية المعجم الفني والعالم الشعري الى مقولة فيها من الكلية والتعميم ما قد يوقع في التضليل وسوء التفسير ما لم نتجه عند القراءة الى ما يتيح لنا أن نقف على مفاتيح هذا المعجم مكتشفين ما في عالم الشاعر من تميز وخصوصية ، مستعينين على هذا الكشف بمنهج يفيد من علم النفس بعد وضعه في السياق الانطولوجي الملائم الذي يفسّر شغف الشاعر بالمعادن الثمينة والأحجار الكريمة في معرض وصفه لزينة المرأة ، ويفسر في الوقت ذاته المعامل الرمزي والموضوعي لتلك الأشياء .

وقد يتمثل معنى هذا العالم الذي قدمه عمر لنا في أن هذه الأشياء تعبر على مستوى الذات الحالمة عن رغبة في التألق والظهور والزهو والخيلاء . إن هذه الجواهر والحلي تحظى بقدرات خارقة ، فهي صافية شفافة مثل ماء الينبوع ، ملساء ناعمة مثل الحرير ، صهباء متقدة في لون اللهب ، فالماس ينظر إلينا فعلاً ويثير فينا أحاسيس الشهوة والطمع وحب المشاركة في بريقه وفي جماله السرمدي ، أما اللؤلؤة فماء مقطر ، وندى الصباح البلوري ، وفجر منعش يحقق للإنسان السعادة والفرحة والنعيم »[1] .

إن المرأة لم تتجل في شعر عمر الا في سياق زينة مصطنعة وناعمة ، وهذه الحلي والطيوب والأصباغ لا قيمة لها في ذاتها ، وإنما قيمتها في أن تكون زينة للمرأة ، ومن ثم تكتسب معانيها ودلالاتها . وعلى هذا النحو يشرب اللؤلؤ والمرجان والزبرجد والياقوت دلالة تملؤه بقصديْن مترابطيْن ، إذ تتجلى الزينة بواسطة المرأة ، كما تتكشف المرأة في سياق ما تصطنع من زينة .

لقد كان عمر يريد المرأة لنفسه على نحو لا يخلو من التملك والاستحواذ ، فأولئك النسوة اللائي شايعن محبوبته تكشفن لرؤ يته الشعرية تماثيل مموهة بمعدن نفيس :

فَطِرْنَ طيْراً لما قالَتْ وشايَعَها ... مثلُ التماثيلِ قد مُوِّهْنَ بالذَّهبِ

وقد توحي صورة التماثيل المموهة بالذهب بفكرة مثال أو نموذج للجمال الأنثوي يجسد القيم الإستطيقية ، ويتمثل المعنى الرمزي للصورة في أن الشاعر كان يريد المرأة على نحو لا نهائي مشروط بأن تكون المرأة ذاتها في وضع نهائي مكتمل ومتسق مع طبيعة وجود الأشياء ، مما يهيء للشاعر أن يسيطر عليه وأن يتأمله ويلعب به ، دون أن تبدي هذه التماثيل الذهبية من قبلها مقاومة أو تمنعا .

وليكن عمر شاعراً غاوياً ، فإنه برغم ذلك نفث من روحه القلقة الهائمة ، ومن مجانية الإبداع قيماً نفسية وجمالية في نسيج الشعر العربي ، وليقل النقاد القدماء إن شعره يورط ويوقع في مآزق أخلاقية ودينية ، فإن تعمده الذنب لا يخلو من إشادة بالخير وتمجيد

---

(١) انظر ، د . محمد الكردي ، نظرية الخيال عند جاستون باشلار ، مقال في مجلة عالم الفكر الكويتية ، العدد الثاني ، المجلد الحادي عشر ص ٥٥١ .

للفضيلة على نحو غير مباشر . إنه بوصفه خاطئاً يرفض ما هو نافع ، ويقف ما لديه من اهتمامات وجهود على أشياء تخلو من المنفعة والفعالية .

وكأن عمر يتخذ من إبليس نموذجا يحتذى ، ذلك أنه منفى عن الطاعة ، منبوذ من الرضوان السماوي ، متجبّر في عصيان يبحث من خلاله عن الذات ، منبتّةً صلته في هذا التناهي الإنساني الأسيان بلوحة الأوامر والزواجر الإلهية ، وهو يجد في المرأة مصدر لذة لاتنفد وغواية لا تقاوم ، وهو يحاكي من خلالها نموذجية الوسوسة الأولى بوصفها سراً من أسرار الطرد والهبوط إلى عالم الممكنات والسقوط في الناس والأشياء والأدوات .

إن للمذنب بالمعنى الديني كما هو الشأن في حالة عمر قيماً يؤسسها وأخلاقاً يبنيها ، وهي في مجملها تبحث عن الجمال وتنشد اللذة ، وتحقق أقصى درجة من حرية الذات التي تختار بإرادتها وضعاً ينحيها عن نوال الرحمة الإلهية ، ويجعلها مطرودة تلوذ بهمسات الرغبة ولا تلبي الا النداء الصادر إليها من وصيد غرائزها ، واجدة إشباعها في ضرب من الضلال واللامبالاة وإرخاء العنان ، غير مبالية بالأعراف والتقاليد الاجتماعية والأوامر والنواهي الدينية ، لأنها إنما تعمل ضد الشهوات وترد جماح الغرائز .

لقد قدم عمر في شعره صوراً متعددة للمرأة ، وهي عنده تشكل نظرة الغير التي أسهمت في تكوين فتشيته ونرجسيته ، وهو إذ يصورها إنما يعبر عما كان يغزوه من شعور موصول بالملال ، تكشف في أنه لم يقف قصائده الغنائية على واحدة بعينها كما يفعل شعراء الغزل العذري ، لأنه إنما يهوى الجمال فهو يتعشقه ويغني له أينما وجده ، متجاوزا حدود الارتباطات العاطفية النهائية لأنها لا تلائم ذاته الراغبة في الإثارة والفتنة والتجديد الذي يجنبه أن يقع فريسة للضجر ، ويحول بينه وبين التكرار .

وللمرأة رمزية خاصة في شعر عمر عندما يجعلها موضوعاً لغزله في موسم الحج ، وما أكثر ما تغزل بهنّ في هذا الموسم . ومن قبيل هذه الأشعار قوله :

وكَـمْ من قتـيلٍ لا يُبَـاءُ به دَمُ	ومـن غَلِقٍ رَهْـنـاً إذا ضَمَّـه مِنَـى
ومـن مالىءٍ عينـيه من شيْءٍ غيره	إذا راحَ نحـو الجمْـرَة البيضُ كالـدُّمَى
يُسَـحّبْـنَ أذيالَ الـمُـروط بأَسْـوُقٍ	خِدالٍ وأعـجـازٍ مآكِمُـهـا روَى
أوانس يسـلُبْـنَ الحـليمَ فؤادَهُ	فياطـولَ ما شَوْقٍ ويـاحُـسْـنَ مُجْتَـلَي
فلم أرَ كالـتـجْـمـيرِ منـظر نَاظـرٍ	ولا كليالي الـحَـجِّ أفْـلَتْـنَ ذا هَوَى

وقوله وقد رأى زمراً من النساء على الطريق إلى المصلى :

مَرَّ بي سِرْبُ ظباءٍ رائحاتٍ من قُباءِ
زُمَراً نحو المُصَلَّى مُسْرِعاتٍ في خَلاءِ
فتعرَّضْتُ وألقَيْتُ جلابيبَ الحَياءِ
وقديماً كان عَهْدي وفُتوني بالنِّساءِ

وقوله في امرأة وقفت في محصب منى :

نظَرْتُ إليها بالمُحصَّب من مِنىً ولي نَظَرٌ لولا التَحَرُّجُ عارِمُ
فقلتُ أشمسٌ أم مصابيحُ بيعةٍ بدَتْ لك خلْفَ السَّجْفِ أم أنتَ حالِمُ
بَعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ إما لنَوْفَلٍ أبُوها وإما عُبد شمْسٍ وهاشِمُ
وَمدَّ عليها السَّجْفَ يوم لقِيتُها على عَجَلٍ تُبَّاعُها والخَوادِمُ
فلم أستطِعْها غير أنْ قدْ بَدا لَنا عشيةَ راحَتْ وجهُها والمعَاصِمُ
معاصمُ لم تضربْ على البَهْم بالضُّحى عَصاها وَوَجْهُ لم تَلُحْهُ السَّمائِمُ
نُضارٌ ترى فيه أساريعَ مائه صبيحٌ تُغَاديه الأكفُّ النواعِمُ
إذا ما دعَتْ أتْرابَها فاكتنَفْنَها تمايَلْنَ أم مالَتْ بهنَّ المآكِمُ
طلبْنَ الصِّبا حتي إذا ما أصبْنَهُ نَزَعْنَ وهُنّ المسلماتُ الظَّوالِمُ

لقد كان عمر لا يختار لغزله إلا نساء البيوتات العريقة والأسر النبيلة . ويكشف النموذج الثالث عن هذا الاختيار ، فتلك الأنثى التي رآها في المحصب من منى فتحت له السبيل الى أن يحدس منشأها . إنها ليست من العامة والأغمار إذ تحج ومعها وصيفاتها وخوادمها ، وبصحبتها أتراب لها من عائلات ذوات شأن ويسار . إنها مرفهة ناعمة لا شأن لها بما تعاني نساء الطبقة الفقيرة الكادحة من شغل لا يفرغ ونصب في معالجة شئون الحياة .

إننا إذ نسائل أنفسنا عن اختيار الشاعر إنما نرغب في تفسير معناه الذي لا يكفي في الكشف عنه أن نهيب بتصورات العقد الأوديبية متمثلة في علاقته بأمه ، وذلك أننا لا نملك في هذا الصدد شيئاً ذا بال إذ لم تحدثنا المصادر عن شيء من ذلك ، وكل ما ذكره صاحب الأغاني في ترجمته الضافية عن أم الشاعر أن اسمها مَجْد وأنها سبيت من

حضرموت ويقال من حمير ومن هناك أتاه الغزل [1] ويتجه نفر من الدارسين عند تفسير هذه الظاهرة إلى أن سعيه وراء النساء لم يكن نابعا من تكوين نفسيّ خاص أو فلسفة واضحة تغلب المتعة الحسية على المتعة النفسية ، ولكنه كان جانبا من جوانب الحياة عند الشاعر لا يناقض إحساسه بالمعاني النفسية والحب الصادق . . وعمر شاعر يعبر عن هذه الحياة بوجهيها المتكاملينْ : شعور صادق بالحب ومحاولات للقاء تخلع على النساء طابعاً خاصاً تبدو معه على شيء من التحلل والمادية وإن لم تكن متحللة ولا مادية بالمعنى الصحيح ، فقد كانت تلك الطائفة من النساء ذوات المكانة أو الثقافة يردن أن يحققن لأنفسهن شيئا من المكانة الاجتماعية في نطاق ما يسمح به ذلك المجتمع الانفصالي . ولم يكن هناك ما هو أنسب من أن يربطن أسبابهن بسبب مع فتى من فتيان قريش ، وشاعر مرموق يلهج الناس بشعره ويتغنى به المغنون ، فأمثال عمر في ذلك المجتمع كانوا عند هؤلاء النساء نجوماً وموضع إعجاب ووسيلة شهرة [2] .

إن المرأة الأرستقراطية التي يدور حولها غزل عمر ترمز لمعاني النعومة المحاصرة والجمال المنفيّ وراء الأسوار ، محتجباً بالعادات والتقاليد ، وهي في حراسة تلك القيود ترمز لضرب من الكفّ والاحتباس ، والشاعر إذ يجعلها موضوعاً لغزله ينتهك وحدتها المصطنعة ويمزق عنها حجب الحصار ، وهو يظفر بنبلها وبجمالها الرخيّ بمجرد أن يجعلها منظوراً إليها ومرغوباً فيها إنها في شعر عمر تحفة تتألق في سكون ، وتستمد قيمتها من هشاشتها ومن ضعفها وعزلتها ومن تحولها إلى موضوع إثارة واشتهاء ونظرة شبقة في سياق لحظة ومكان لا يسمحان بالفسوق والرفث والنظر العارم غير المتحرج ، وهي لا تكاد تشعر بمفاتنها وبجمالها إلا من خلال هذه النظرة وبواسطة تلك الغنائية الشعرية التي تجعل جسمها حاضراً من أجل الغير . إن جسد المرأة ونظرة الشاعر متتامّان يتجلى كل منهما بواسطة الآخر ويحيل عليه . وهذه النظرة التي تمتلىء بما يفتن ويثير ، عرض من أعراض التدنيس ، وعلامة على رجس بالمعنى الديني ، في مقابل النظرة العذرية التي

---

(١) الأغاني ج ١ ص ٦٦ .

(٢) أنظر د . إبراهيم عبد الرحمن ، بين القديم والجديد ـ دراسات في الأدب والنقد ـ مكتبة الشباب ص ٤٥٧ وراجع عرض المؤلف في المرجع السابق لآراء الدكتور عبد القادر القط في كتابه : في الأدب الإسلامي والأموي ط بيروت .

تتحرك في سياق التطهر والكفّ الجنسي والخجل والاستحياء العاطفي والرغبة في تحقيق التوافق بين ما يرغب فيه وما يخشى منه ومقاومة الإغراء والاستهواء وأين هذه النظرة الوجدانية الحالمة التي تتغنى بالكبت والحرمان من تلك التي تستهدف جسد المرأة وتتأمله وتكشف عنه وتعرّيه .

ومَنْ مالِءٍ عينَيْهِ من شَيْءِ غيره إذا راحَ نحو الجمْرَة البيضُ كالدُّمَى
يُسَحِّبْنَ أذيالَ المُروط بأسْوُقٍ خِدال وأعْجازٍ مآكِمُها رِوَى

وأين تعرضه لهن ملقياً جلابيب الحياء مما ينبغي في أداء هذه المناسك من تَعَفُّف وتقوي ؟ إنه في أخيولته النرجسية يصف إحداهن بأنها اشتدت في أثره تطلبه وتسأل عنه أهل الطواف .

ثم اسْبَطرّت تشْتَدُّ في أَثَري تسأَلُ أهلَ الطواف عن عُمَرِ

هذا قوله ، وفي رواية أخرى :

قُومي تصَدَّيْ له ليُبْصَرنا ثم اغْمِزيه يا أُخْتُ في خَفَرِ
قالتْ لها قد غمزْتُهُ فأبى ثم اسْبطرَّتْ تشْتَدُّ في أثري

على هذا النحو لا يفهم غزل عمر ولا تفسر دلالاته ورموزه إلا في سياق طقوس الحج ومناسكه والنهي عن الإتيان فيه بما يعارض قداسة الفريضة في النفوس .

لقد كان الشاعر يغتنم فرصة الحج في ذلك المجتمع الانفصالي المغلق ، ففيه يغص الحجاز بالحجيج ، وهو ملتقى الرجال والنساء ، ولن يجد الشاعر ما يعدل هذه الفرصة للقاء والنظر والتواعد والتشبيب والمغازلة . إننا إذ نعزل هذه المقطوعات والقصائد الغنائية عن تلك الملابسات الدينية نفرغها من مضمونها ومعناها الذي ربما تمثل لنا في ضرب من تحدي الشعور العام ، إنها رغبة في كسر المحرم وانتهاكه والتنعم الشيطاني بما في إباحة المحظور من لذة وحلاوة . إن المرأة عنده رمز لما يستصرخ ويهيب بالنظر الممتلىء الفاحش ، وعلى هذا النحو يستحضر الشاعر جاهلية أولى كان العرى والاتصال الجسدي فيها من مناسك ذلك الحج البدائي الذي هذبه الإسلام في وجدان الجماعة .

إننا لا ننفي عن الشاعر نزعته المادية المتحللة ، وإنما نحتفظ بها ونحاول أن نجد

لها تفسيراً يربطها بما يلائمها من مساقات دينية يئول بعضها إلى معصية نموذجية للأمر الإلهي ، تجد تحققها في إباء السجود الأول ، وما نجم عن هذا الإباء من شعور بالذنب والانسحاق والطرد والهبوط ، ويرتد بعضها الآخر الى شكل نموذجي للحج الجاهلي القديم ، استقر في وجدان الشاعر كما تستقر الأنماط والرموز الموروثة ، ولقد عبّر عنه بعد أن لبسه على الناس وعلى نفسه ، مما يعني أن لدى الشاعر حالة من كف الشعور أفضت الى فعالية اللا شعور حيث تكمن الجذور الشائعة القديمة ، وحيث يتكشف المحتوى بوصفه منطقة وسطى توفق بين الأضداد المتمثلة في تقابل الحسي والروحي ، وهكذا يحتضن المحتوى الأوسط لوفرة ما لديه من تداعيات الموضوع الروحي والنقيض الحسي ، وإذا ما انشقت الأنـابين الموضوع والنقيض ، بدا لها هذا المحتوى الرمزي تعبيراً توفيقياً فريداً لا تملك إلا أن تعض عليه بشغف لتتحرر من انقسامها ، وصوب هذا التعبير تتدفق الطاقة الناجمة عن توتر الأضداد لتتخلص من الصراع [1] .

إن اهتـمام بعض الدارسين المعاصرين بالتحليل المعجمي لا يعني أن القدماء لم يفطنوا لهذه المعجمات الفنية ، ذلك أنهم لاحظوا عند استقراء الشعر القديم اختلاف الشعـراء فيما يصفـون ويصورون ، وقد فطن صاحب الأغاني في ترجمة عمر لما يضم معجمه الفني من صور لها خصائصها ودلالاتها ، وذكر في هذا السياق أن من تحييره ماء الشباب قوله :

أَبْـرَزُوهـا مثـلَ الـمَـهـاةِ تَهادَى   بين خَمْسٍ كَواعـبٍ أَتْـرابِ
ثُمّ قالُـوا تُحِبُّـهـا قلتُ بَهْراً   عددَ الـقـطْرِ والحـصـى والـتُّرابِ
وهــي مكـنـونَـةٌ تَحَيَّرَ منهـا   في أديم الخـدّيْن ماءُ الـشّـبـابِ

وقوله في أسر النوم :

نامَ صَحْـبـي وبـات نومي أَسـيراً   أرْقُـبُ الـنـجـمَ مَوْهِـنـاً أن يَغُـورَا

وقوله في تنفيض الكرى :

---

(1) G.G. Jung, The psychology of induviduation, trans by, H Godwin Baynes, London, p 608,609

وغـــاب قُمَـيْرٌ كنتُ أرجــو غُيوبَـهُ ورَوَّحَ رُعْـيانٌ ونَـوَّمَ سُمَّـرُ
وَنَفَّضْتُ عني النوم أقبلْتُ مِشيَةَ الـحُباب ورُكْني خَشية القوْمِ أَزْوَرُ

واكتفى صاحب الأغاني بتصنيف الصور وعرضها ، أما التحليل المعجمي فيستكنه المعامل الرمزي والجمالي للصور وينطلق من اللغة في مستواها الإبداعي ، ويعني بالنص بوصفه تجليا قابلاً للوصف والتحليل [1]

ولدينا الآن ثلاث صور اخترناها من هذا المعجم ، الأولى تتمثل في قوله :

ذَهَبْتَ ولم تُلْمِمْ بديباجةِ الحَرَمْ وقـدْ كُنْتَ منها في عَنَاءٍ وفي سَقَمْ

ونظفر بالثانية في قوله :

وطـافَتْ بنا شمسٌ عشاءً ومن رأى من النـاس شَمْساً بالعشاء تَطُوفُ

أما الصورة الثالثة فقوله في عائشة بنت طلحة وقد رآها تطوف :

أظَلُّ إذا أكلِّمُها كأنِّي أكَلِّم حيَّةً غلبَتْ رُقَاها
تَبيتُ الَّي بعْدَ النَّوْمِ تَسْرِي وقد أمْسَيْتُ لا أُخْشَى سُرَاها

وتئول عناصر الصور في هذه النماذج إلى ديباجة الحرم والشمس الطائفة عشاء والحية التي يغلب سمها الرقاة . ويؤذن تحليل هذه الصور بإمكانية الكشف عن المعادل الرمزي للمرأة في شعر عمر ، وفي هذا السياق تطالعنا « ديباجة الحرم » صورة لأنثى هي لهذا المكان المقدس زينة كاسية وبهجة ناعمة نعومة الديباج .

أما الشمس الطائفة عشاء فصورة تنطوي على المباغتة وعدم التوقع ، ذلك أن الليل الذي يخفي الشمس بات الآن يظهرها وتظهره . إن ما يحجب آل إلى ما يكشف ويحقق ظهيرة العتمة ، والصورة على هذا النحو وصف لليل أشمس بهذه الأنثى التي جعلت تفيض في الطواف .

وأما الحية فإنها متى تكورت وعضت ذنبها تشكلت على نحو دائري يوحي

(١) انظر ، عاطف جوده نصر ، الخيال مفهوماته ووظائفه ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ ص ٢٣٠/٢٣١

بالطواف ، وفي هذه الحية السارية التي غلبت رقاها دلالة تئول إلى البث والمخالسة في موسم الحج بوصفها تعبيراً عن تنعم الشاعر بحلاوة يجدها في كسر المحرم وإباحة المحظور .

إن محور الارتكاز لهذه العناصر بنية مقدسة هي البيت الحرام ، ومنسك هو الطواف ، أما الأنثى فتوحيد لهذه العناصر جامع بين متقابلات ، إنها جمال رخى ناعم يدهش كما تدهش شمس طلعت بليل وتقتل بسم لذيذ . على هذا النحو تتكشف المرأة في شعر عمر رمزاً للناعم والمدهش ، ودلالة على طراوة تستصرخ وتهيب باللمس ، إنها رمز جمال نبيل ونبل جميل [1] .

ويهدينا تحليل معجمه الفني من أجل الكشف عن صوره وعوالمه ومواقفه الشخصية إلى وعي تخيلي بمزيج من الفاغم والبراق ، فلم يكن الشاعر مكتفياً بهذه العطور يستنشقها بلذة وشغف ، وإنما كانت هذه الطيوب والأفاويه تملأ فيه خواء وتسد فراغاً .

إن دراسة الخيال الشعري واستكناه ما يفرز من صور انطلاقاً من تحليل الأبنية المعجمية أمر تدعو إليه طبيعة الخيال المبدع ، فالشعر في جوهره بنية لغوية لها من الخصوصية في التعبير ما ليس لغيرها وإذا كان الشعر تجليا للغة وماهيتها ، فإن طبيعته هذه في شعر عمر وفي شعر غيره تسمح بتحليل أنساقه المعجمية وفق طبيعة الخيال وما يبدع من صور تتنوع بتنوع الشعراء والتجارب والرؤ ى والمسالك الخاصة بمعرفة العالم .

على هذا النحو تعد الصورة في الوعي التخيلي المبدع كاشفة عن الوجود والموجود معاً . إنها معامل رمزي للأشياء ، متى انفلت منا أخفقنا في أن نلج عالم الشاعر وأن نقف على الحدس الشعري من حيث هو ضرب من المعرفة وطموح إلى الحقيقة . [2]

إن الموازنة بين شعر عمر وغزل الشعراء المتعففين أمر مشروع تفرضه طبيعة التقابل بين الظواهر الثقافية ، وما يحكم بناءها في العصور التاريخية من حركة تستقطب الأفعال وردود الأفعال . من هذا المنطلق درج بعض الدارسين على وضع هاتين الظاهرتين في سياق عوامل حضارية وثقافية ، كأنهم بذلك يفسرون الظواهر باعتبارها نتائج لعوامل

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٢ .

(٢) الخيال مفهوماته ووظائفه ص ٢٣٣ / ٢٣٤ / ٢٣٥ .

عامة وعلل مشتركة ومؤثرة تتمثل فيما انتهى اليه النقد الفرنسي عند بيف وتين من تفسير للظواهر الأدبية بردها إلى نسق من الأسباب التي تئول إلى البيئة والعصر والنشأة وغير ذلك ، على نحو ما كان العلماء التجريبيون يفسرون ظواهر العالم البيولوجي .

على هذا النحو فسروا الغزل بنوعيه في بيئة الحجاز في القرن الأول بوصفه رؤية فنية لطبيعة هذه الحياة وموقفا فنيا من مشكلاتها ، وردوا الغزل العذري وما فيه من شعور بالفقد والاغتراب الى معادل فني لواقع الحياة السياسية والحضارية ، عبر الشعراء من خلاله عن خيبة الأمل في الإصلاح ، أما الغزل الصريح وما يرصده من تجارب ناجحة ، وما يحققه الشعراء فيه من متعة وحرية وتمرد على التقاليد الدينية والاجتماعية فإنه تعبير عن الأمل في الإصلاح وتغير الأحوال ، وهكذا نستطيع أن نفهم كيف نشأ فنانان غزليان مختلفان في بيئة واحدة ليعبر الشعراء من خلالهما عن مشكلات وقضايا بعينها [1] .

ولا مصادرة على هذا التفسير غير أنه يفسّر الخاص بالعام ويردّ الفردي في تميزه إلى الكلي في شموليته ، مصطنعاً في ذلك المناهج التي تتأسى بدراسات علم الحياة وتطور الكائنات . وهو تفسير آليّ يقدم نظرة ترابطية لا تفي بالكشف عن البعد الوجودي لعالم الشاعر ، ولا تجيب عن الاستفسار البديهي الذي يسأل عن الأسباب التي جعلت الشاعر يختار نفسه ويختار شعره على هذا النحو ، ولماذا هو آبق ؟ ولم كان يبحث عما يصم ويدين ؟ ولم كان الغزل لا يحلو له إلا في موسم الحج ؟ ولماذا كان مفتوناً في شعره بالفاغم والبرّاق والناعم ؟

إننا في الحقيقة أمام شاعر اختار نفسه وشعره على نحو شهواني لن نفهمه إلا بوضعه في سياق ثقافة دينية لها قيمها وأصولها الشعرية والأخلاقية . وهذه الشهوانية التي كانت تتبتّل للجمال والجنس في أيام معدودات من شعيرة جماعية لها مقومات سلوكية ، تفسّر لنا الكيفية التي آل بها شعر عمر عند طائفة من النقاد القدماء إلى موضوع تابويّ لأنه نجس أو يفضي إلى النجس .

لقد قال أبو المقوم الأنصاري فيما أورد عنه صاحب الأغاني إن الله ما عصى بشيء كما عصر بشعر عمر ولسنا نعرف شيئا عن صاحب هذا القول سوى أن عبارته تلك تنبىء

(١) بين القديم والجديد ـ دراسات في الأدب والنقد ص ٢٦ .

عن ورعه وتدينه ، مما يعني أنه قصد بها أن يربط بين الشعر والمواقف السلوكية ، وفي شعر عمر بهذا المعنى ضرب من الإثارة والتحريض على الرذيلة .

ويحتاج هذا القول إلى فضل تأمل واستبطان ، وذلك أن العصيان تمرد على سلطة تأمر وتنهي ، وهو يستمد معناه في هذا السياق من الأفق الديني الذي ألحنا على أهميته وبيّنا مغزاه في الكشف عن التناقض بين طاعة الغرائز التي تسترسل في الإشباع بلا حدود وعصيان الأوامر العليا ، والتقابل بين الحرية الذاتية التي تسعى إلى المعرفة والضرورة التي تلزم بالطاعة وباستمداد أحكام القيمة من التحديدات القبلية . وليس العصيان في حالة عمر كعصيان الآحاد من الناس إذ المعصية في هذا السياق رفد للإبداع الفني ، وخبرة دنيوية للمذنب تتفتح من خلالها معاني الحرية والفن والجمال . وشعر عمر على هذا النحو ضرب من الابتهال والضراعة للغواية ، واتصال بضلالة لا ينضب لها معين ، وهبوط موغل في ظلمات الرغبة .

إن شعره يحقق شهوانية نموذجية تستمد قيمتها من شقاقها مع الأعراف والتقاليد والدين ، وهو ذاته يجسد نمطا جماليا له خصائصه ومقوماته . إنه لا يقر بأخلاق التورع والتقوى والتطهّر ، ويضع الفن بديلا عن الدين بحيث باتت المرأة في شعره منسكاً من مناسك الحج ، وهو يبسط سلطان العاطفة والحساسية والغريزة على العقل والزكانة مبشراً بالمرح والجسارة .

وما أشبه عمر وشعره بما نعته الوجودي الدانيمركي كيركجور بمدرج الجمال والحساسية ، وهو الذي فيه يحيا الإنسان في اللحظة الحاضرة المنعزلة ، فلا عبرة لديه إلا بالمتعة ، ولذا ينتهب اللذات ولا يرتبط بما من شأنه أن يقيد ، ولكل لحظة عنده أصدقاؤها وواجباتها ، ولكل فعل ملابساته ومرجحاته ، ولكل وضع مسلك يتكيف وفقا له ، وأبغض شيء لديه التكرار ، لذا فإنه لا يستقر على حال ويسعى إلى تجنب أن يقع فريسة للملال [1] .

إن هذا الشعور الحادّ بالسأم هو الذي كان يدفع الشاعر إلى ما قصه في قصائده ومقطوعاته من فنون الغزل ومطاردة النساء ، وهو من وراء ولعه بالتغيير وعدم الولاء

(١) د . عبد الرحمن بدوي ، دراسات في الفلسفة الوجودية ط .. النهضة ١٩٦٦ ص ٣٤ / ٨٢ وراجع أيضاً :
Geoege Alfred Schrader, Existential philosophers : Kierkegaard to Merleau - Ponty, N.Y. 1967, p 75

للإرتباطات العاطفية بواحدة يحبها ويقف شعره عليها على نحو ما كان الغزلون من الشعراء العذريين يصنعون . وهو على حد ما وصف نفسه في شعره إذا قضى من واحدة وطراً آل أمره معها إلى الهجران ، لا يطيق الواحدية في العشق لأنه إنما يهوى التعدد والتنويع والإفلات مما يقيد الذات ويحد من حركتها العاطفية ومغامرتها الوجودية .

يقول عمر على لسان إحدى من تغزل بهن :

بَعَثْتُ وليدتي سَحَراً وقلتُ لها خُذِي حَذَرَكْ
وقُولي في مُعاتبةٍ لزيْنَبَ نولِّي عُمَرَكْ
فهزَّتْ رأسَها عَجَباً وقالتْ من بِذا أَمَرَكْ
أهذا سحرُكَ النِّسْوانَ قد خبَّرْنني خبَرَكْ
وقُلْنَ إذا قضى وَطَراً وأدْرَكَ حاجةً هَجَرَكْ

وهو يفصح عن هذا الملل ويصف نفسه بأنه طَرِفٌ لا يثبت على شيء واحد ، وذلك قوله :

فقالَتْ وصدَّتْ أنتَ صبٌّ متيَّمٌ وفيكَ لكلِّ الناس مُطَّلبٌ عُذْرا
مَلُولٌ لمن يَهْواكَ مُسْتَطْرِف الهوى أخُو شهواتٍ تَبْذُلُ المَذْقَ والنَّزْرا

وقوله بلسان إحدى عشيقاته :
طَرِفٌ يُنازِعُهُ إلى أدْنَى الهَوى ويبُتُّ خُلَّةَ ذي الوصالِ الأَقْدَمِ (1)

وأحسب أن ملل الشاعر هو الذي دفعه دفعاً إلى ما أفاض فيه من صبوات ومغامرات وأسفار ، وربما كان هذا الملل طبيعة أصيلة فيه ، وربما كان وليد التحضر وثمرة الدعة والفراغ والثراء ، غير أن تصميمات الملول ومشروعاته وتجاربه العاطفية ونزوعه فيها إلى التوثب والتعدد وعدم الولاء ، كل ذلك لا يغني عنه شيئا ولا يذود مللاً يطارده ويجثم عليه في ثقل ووخامة .

وإن شاعرا ملولاً مثل عمر ليعرف أن الزواج والإنجاب والالتزام بها يفرضان من

---

(1) راجع في هذه الأشعار شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط . بيروت ـ دار الأندلس ـ الطبعة الثانية ١٩٨٣ .

واجبات ومسئوليات ، مرحلة من مراحل الحياة الشخصية ومدرج من مدارجها تؤسسه ارتبـاطـات أخـلاقية ، وقـد بقي برغم الزواج والأولاد معلقاً في الأفق الجمالي ، أفق الحسّاسة والرهافة والفن والبحث عما يضرم الرغبة ويزيدها اشتهاء . على هذا النحو وقع الشاعر بين مستويينْ متقابلينْ يمثلان الواحدية في الزواج والتعددية في العشق والغزوات الغرامية ، وهو وقوع كان من شأنه أن يرهف من شعوره بالقلق ، والقلق والملال صنوان تحكمهما علاقة طردية .

إن عمر شاعر أدرك ذاته في سقوطه وفي ملله ، وبسبب هذا الملل الذي يخيم كما لو كان على حد تعبير هيدجر ضباباً صامتاً في مهاوي الواقع الإنساني ، كان موقف عمر من المرأة يتجلى في حالة من عدم التمايز ، فالنساء على كثرة ما ذكر منهن في شعره سواء .

صحيح أن عمـر كان يصـطنع في شيء من شعره لغة المتعففين ، وكان يذكر ما يذكرون من اللاحين والوشاة والرقباء والسفراء ، ويصف ما يصفون من الصبابة والهيام وذكريات ليالي الوصال ولواعج الهجر والحرمان ، غير أن هذا كله لم يكد يصدر فيه عن تجارب عاطفية ، ومن ثم يبقى أكثر شعره تعبيراً عن رغبة في تعرية الذات وكشف عوارها والإفصـاح عن تصـدعاتها وعما تردت فيه من سقوط وروحية سلبية وإحساس فياض بالأشياء والموضوعات ، وعما آل إليه من لامبالاة واستسلام حزين وضراوة مادية رقيقة .

إن عمر شاعر أدرك ذاته في قيمة البوح بوصفه ضرباً من الإفشاء والإعلان ، وفي هذا البوح ما فيه من التقحم والجرأة وتجنب التلويح والتعريض . وليس البوح وقفاً على المعنى العاطفي ، فقد كان العذريون يبوحون بذلك ولا يكتمون منه شيئاً ، وإنما كان عمر يبوح في كثير من شعره بنواياه ومسالكه الغرامية ، وكان يفصح عن ضلالته وغوايته وفتنته النساء وهن يؤدين شعائر الحج من وقوف وإفاضة وطواف وتجمير . يقول عمر بلسان من تحدث خوادمها :

هذا الـذي يَسْبـي الـفُـؤادَ ولا   يَكْـنِي ولـكـنْ باحَ في الـشِّـعْـرِ

وقـد بدا أكثـر هذا الشعـر بوصفه مجال البوح مشوباً بطابع الروايات والقصص الغـرامي الـذي تتخلله الحـركة والحوار والشخصيات والمصادفات والمباغتات والخدع والمفارقات ، ويكفي أن نرجع في هذا المجال إلى مجموعة من قصائده المشهورة ، ومنها قصيدته التي مطلعها :

أمِــنْ آلِ نُعْــم أنــتَ غادٍ فمبْـكِــرُ   غَداةَ غَدٍ أمْ رائــحُ فمُــهَــجِّــرُ

وقصيدته التي أولها :

ألـمْ تســأل الأطــلالَ والـمُــتَرَبَّعــا   بِبَــطْنِ حُلَيَّاتٍ دَوارسَ بَلْقَــعَــا

ومنها التي افتتحها بقوله :

رَاحَ صَحْــبــى ولم أُحَــيّ الــنَّــوَارا   وقــليلٌ لو عَرَّجُــوا أنْ تُزارا

وقصيدته التي ابتداؤها :

ألَا يالـقَــوْمِـي للهــوى الـمُــتَـقَسِّمِ   ولـلقَـلْبِ في ظَلْماءِ سَكْــرَتِــهِ الـعِـمَـى

ولاشك أن هذا الطراز من الشعر كان فناً جديداً استحدثه عمر في القرن الأول ، وملأ به بيئة الحجاز الأدبية حتى فتن به الرواة والمغنون والشعراء ونفر من الفقهاء والمفسرين .

وأحسب أن عمر لم يفتن عصره وبيئته بهذه النكهة الشعرية الجديدة فحسب ، وإنما فتن الناس أيضاً بشخصية غريبة الأطوار ، هي مزيج من التحدي والاغتراب والمغامرة والنزوع إلى الاستعراض والنظارية ، والولع بغزو عالم لين ترف يعيش فيه نسوة من طبقة النبلاء .

أما شعره وعالمه الفني فنسيج من القلق والملل والسقوط والنظرة الشبقة التي تكشف وتعرّي أكثر مما تستر وتغطي ، وتضع ماهية الفسوق والغواية والاشتهاء ، وتؤسس حسية عارمة تفر من الكبت والإحباط إلى الإشباع والتحقق الذي يملؤها بقصد تحركه بواعث اللذة والجمال ، وعدم الركون إلى التكفير والارعواء .

لقد بقي عمر مخلصاً لغرائزه ، وفيّاً لقروحه وعواره وتصّدعاته ، أميناً على أهوائه المتقلبة ، أميراً على نزواته واندفاعاته ، وعلى المرأة التي فتنت به أيما فتون :

فأنْــتَ أبــا الخَــطّاب غيرُ مُدَافَــعٍ   عَلَيَّ أمــيرٌ ما مكــثْــتَ مُؤَمَّــرُ
إذا جِئْتَ فامْنَــحْ طَرْفَ عينَيْكَ غيرنــاً   لكــي يَحْسَبُــوا أن الهــوى حيثُ تَنْــظُرُ